مكتبة مصر
تقدم
مجموعة محمد وصحبه

ارجعوا بنا

إعداد : أمير سعيد السحار



رسوم
عبد الرحمن بكر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة



كانت مجالسُ ابنِ عباسٍ رضيَ اللّهُ عنه حينما كان عاملاً على البصرة ، تعِجُّ بالعلماءِ والقراء ، والمحدّثين، وتطرحُ فى هذه المجالسِ المسائلَ العلميةَ الدقيقة ، ويتناولُها من ذوي الرأىِ والمشورةِ ما يُشارُ إليهم فى المجتمعِ الإسلاميِّ بأسرِه بالبَنان .

وما أجملَ الولاةَ والعمالَ والحكام ، حينما يقومُ مجلسُهم على هذا النوعِ السامي ، وذلك اللونِ الرفيعِ من ألوانِ الحياةِ الجادّة النشيطةِ ، فكلُّ شيءٍ يعتمدُ على العلمِ والبحثِ الدّقيقِ ينتجُ أعظمَ الإنتاج ، ويعودُ على المجتمعِ بأكبرِ الفوائدِ وأسماها، وإن مجتمعًا يقومُ على هذا الأساس، هو مجتمعٌ صالحٌ لا يؤثّر فيه الزمن ، ولا تأتي عليه كوارثُ الأيام .. ومن ذلك تنشأ الحقيقةُ التى يُمكن أن تكونَ أساسَ الإصلاح .

والبصرةُ في هذا العصر ، سوقٌ رائجةٌ للعلم ، وميدانٌ رحيبٌ يتسابقُ فيه العارفون ، كلٌّ يهدفُ إلى غاية ، ويرمي

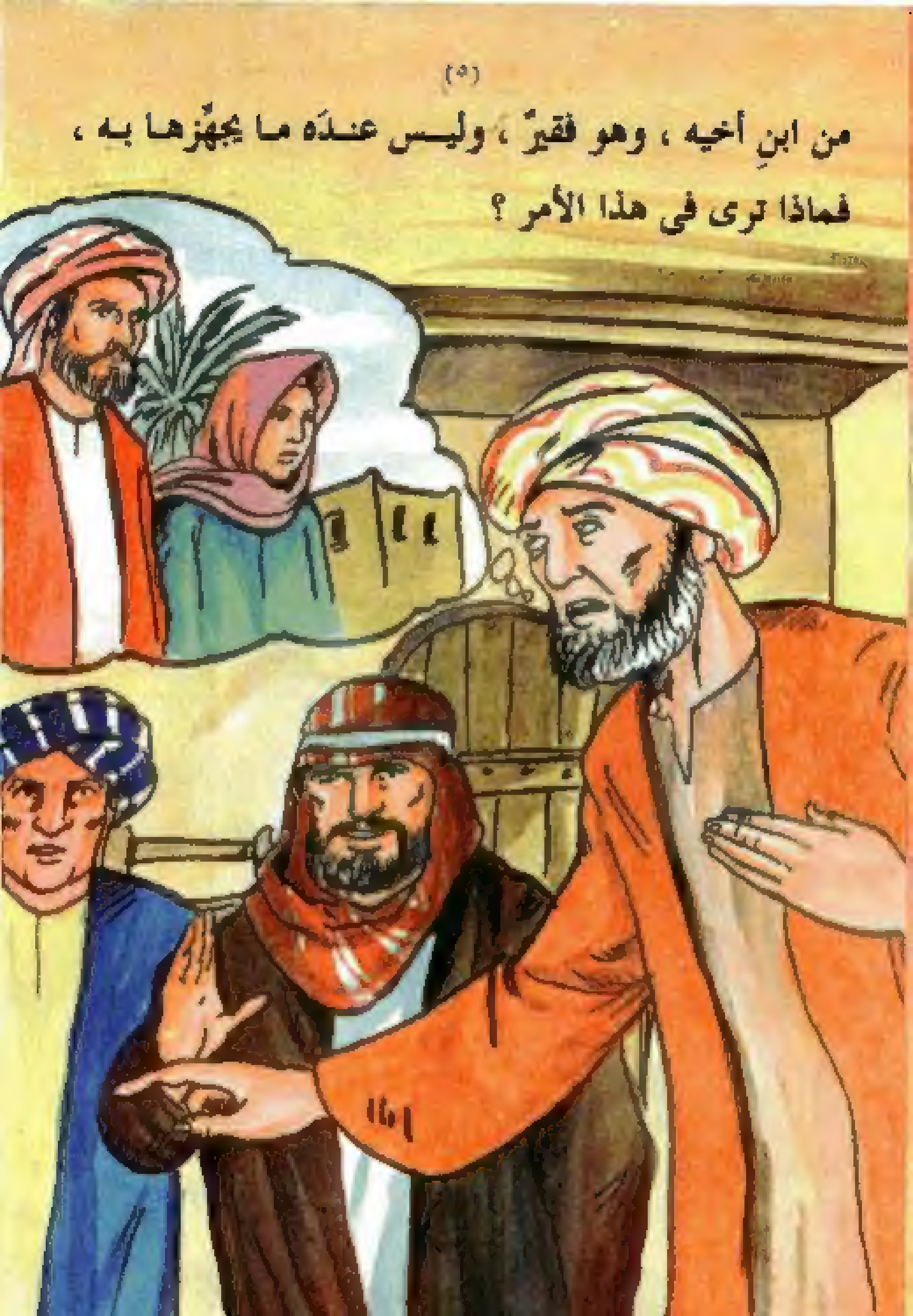
إلى غرض ، والمطلبُ الأسمَى للجميعِ رفعةُ الإسلام ، وصلاحُ المسلمين ، واتساعُ رُقعةِ البلاد ، ليرفرفَ العلَمُ الإسلاميُ في كلِّ البقاعِ وينتشرَ بذلك العدلُ والتقى والصلاح .

وذاتَ مرّة ، اجتمع قراءُ البصرةِ عند ابنِ عباس ، وذكروا اللّه ، ورفرفتِ الملائكةُ على المجلسِ بأجنحةٍ من نور .. ثم ذُكر الفقراء ، وذُكر المحتاجون من المسلمين ، وتحدّث القرّاءُ إلى ابنِ عباسٍ في إخلاص ، ومحبةٍ وعطف:

ـ يابنَ عباس ، أنت وليُّ الأمرِ في هذا البلد ، وقد أمرك اللّهُ أن تكونَ دائماً في عونِ المحتاج كما عهِدناك، وقد واتتِ الفرصة ، وها نحن ندُلُّك على واحدٍ من هؤلاء ، ممن يحبُّهم اللّه .

ـ ومَن هو ؟

ـ هو جارٌ لنا ، صوّامٌ قوّام ، يتمنى كلُّ واحدٍ منا أن يكونَ مثلَه ، وقد زوّج بنتَه


من ابنِ أخيه ، وهو فقيرٌ ، وليس عندَه ما يجهِّزها به ،
فماذا ترى في هذا الأمر ؟



و يُعجب ابنُ عباسٍ على هـذا ، وإنما قام من فَورِه ، وأخذ بأيديهم ، واعتزَمَ أمراً .

لقد صمَّم على إيجادِ المال اللازِم لتجهيزِ هذه الفتاة ، إنه لابُدَّ وأن يكونَ عوناً لهؤلاء ، لئلا تشعرَ

هذه العروسُ بالذلّةِ والمسكنة ، في وقتٍ هي أحوجُ ما تكونُ فيه إلى العزةِ والكرامةِ لتُنجبَ للوطنِ العزيزِ جنودًا أعزاءَ كرامًا يـأبَوْنَ الضَّيم ، ولا يقيمون على ذُلٍّ يُراد بهم . إن هذا بابٌ عظيمٌ من أبوابِ الإنفاق، وما عليه أن يكونَ كريمًا سخيًا . ما دام يقعُ هذا موقعَه من القرضِ الحسنِ الذى يَعنيه ربُّ العالمين .

وأخذ ابنُ عباسٍ بأيدي القراءِ وأدخلَهم دارَه . فأوقعَهم في حيرةٍ ودَهشة ، وتساءلوا بالنظراتِ العابرةِ ، وفاضت بهم الأحاسيس ، وطاف بهمُ الخيالُ الشاردُ في كلّ ناحيةٍ وصَوب.

وخُيِّل لبعضِهم أن ابنَ عباسٍ رُبما شكا لهم ضيقَ الحال. وأنه كان بوُدِّه لو وَجد مالاً فيُعين هذا الرّجل ، ولكنه كما يعلمون لا يبقي كثيراً على المال ، وأنه لهذا يعتذرُ ، وبخاصةٍ وقد شفعَ اعتذارَه بالكتمان ، والقولِ المعروف !! ولكن فريقاً آخرَ علِم من نبرَات ابنِ عباس ، ومن أساريرِ وجهِه حينما كان يتابعُ حديثَهم ، أنه تأثر إلى حدٍّ كبيرٍ بقصةِ ذلك الرجلِ ، وأنه لابدَّ وأن يقدِّمَ له المعونةَ الكافية، التى تُظهرُه أمامَ الناسِ رجلاً محفوظَ الكرامة ،

موفورَ العزة ، وليس هذا على ابنِ عباسٍ ببعيد ، فله مواقفُه التى يعرفُها له الجميع .. !!

واتشلهم ابنُ عباسٍ مما وقعوا فيه من الحيرةِ والدهشِ حينما فتحَ أمامَهم صندوقًا ، فأخرجَ منه ستَّ بِدَر ، ثم قال :

ـ احملوا هذا إلى الرّجل .

حملوا هذه الثروةَ العظيمة ، بالنّسبةِ لرجلٍ فقيرٍ محتاج ، لا يجدُ ما يجهِّز بـه ابنتَـه ، والبَدْرة عشْرةُ آلافِ درهـم ، ولا جَرَمَ أن ستين ألفَ درهمٍ ستقعُ موقعاً من كفايتِه ، بل وفوقَ كفايتِه .

وحمِد القراءُ لابنِ عبـاسٍ هـذه اليـدَ الكريمـة ، والنعمـة العظمى، ولكنّ واحداً منهم يُعلنْ هذا ، فابنُ عباسٍ لا يحبُ أن يُمدحَ فى عملٍ يريدُ بـه وجـهَ اللّـه ، وإنما يُؤثر الصّمتَ والسّكون .

بيدَ أن القراءَ بعد ما حملوا هذه البِدَرَ الستّ ، فكّر ابنُ عباسٍ فى الموضـوع





قليلاً لا بعينِ المتصدِّقِ ، وإنما بعين المؤمنِ البعيدِ النَّظر ، الذى لا ينظرُ إلى الموضوعاتِ نظراتٍ عابرةً ، وإنما يُطيلُ الفكرَ والنظرَ ، فيرى بنورِ اللّهِ ما لا يراه إنسان ..

وهداه تفكيرُه إلى أنه سيشغَلُ هذا الرَّجل ، وأنه سيكون سببًا فى بُعدِه عن اللّهِ الذى خلقَه فسوّاه ، وأن الرجلَ حينما يرى هذا المالَ ربما شغلَه مدةً حتى ينتهيَ من تجهيزِ ابنتِه ، وبذلك يَقطعُه عن عبادةِ ربّه ، عن الصّومِ والصّلاة .

ورأى القراءُ ما يعتملُ فى فكرِ ابنِ عباس . ولكنّهم احترموا صَمتَه ، و يُفاتِحْه أحدُهم الحديث ، وظلُّوا كذلك مدةً حتى قالَ ابنُ عباسٍ فى تُؤَدةٍ وأناة :

ـ واللّهِ ما أنصَفنا جارَكم .

وذهِل القرّاءُ عجبًا وحَيْرة ، فهذا مَبلغٌ ما كانوا يحلُمون بمثلِه لمساعدةِ جارِهم . إنه لمبلغٌ عظيمٌ أكثرَ مما كانوا يَنتظرون ، وإنّ ابنَ عباسٍ لفعلَ أكثرَ مما يجبُ



عليه ، فما معنى قولِه هذا ؟ وماذا كان يريدُ أن يمنحَه إذن إذا كان هذا المالُ قليلاً فى نظرِه . وغيرَ كافٍ لما يريد ؟؟

ـ وماذا تعني يابنَ عباس ؟ أتعنى أن هذا المبلغَ قليل ؟

ـ كلاَّ ، ولكننا أعطيناه ما يَشغَلُه عن قيامِه وصيامِه .!!

وفهِم القراءُ ما يعني ، وجدوا له هذا الشعورَ الحيَّ ، والإحساسَ المُرهَف ، والحرصَ على تقديسِ كلماتِ اللّهِ بالعبادة ، والنظرَ إلى أبعدِ ما كانوا ينتظرون منه .. حقًا إنه ابنُ عباس : ذكاء وعلمًا ، ودينًا وورَعًا ، ورعايةً لحقوقِ اللّهِ مع رعايتِه لحقوقِ العبادِ .

و ينطِقْ واحدٌ منهم بحرف ، و ينبِس ببنتِ شفةٍ ، ولكنَّ وجوهَهم ارتسمت عليها آياتُ التساؤل ، وعلاماتُ الاستفهامِ وكأنما تقول :

ـ وماذا تريدُ أن تصنَع إذن يابنَ عباس ؟!

فأجاب ابنُ عباسٍ فى عزمٍ وقوةٍ وإخلاص :

ـ إرجعوا بنا .. ارجعوا بنا نكنْ أعوانَه على تجهيزِها ، فليس للدُّنيا من القدرِ ما يشغَلُ مؤمنًا عن عبادةِ ربِّه ،



وما بنا من الكبرِ ما لا نخدُم أولياءَ اللّهِ تعالى . !!

ولوّح الشيطانُ من بعيدٍ لبعضِ هذه القلوب ، وأقبل عليها فى خداعٍ ولينٍ وارتياب ، يريدُ أن يفترسَها ، ويشككَها فى هذا العملِ الجليل ، فكيف يرضى أن يبقى هذا ، ويفعلَ الخيرَ صرفًا لا يخالطُه إثم ، نقيًا لا تشوبُه ريبةٌ أو شك ؟!

واعمل الشيطانُ مخالبَه فى هذه القلوبِ النقيّةِ الصافية، وتمحّل لها بكلّ حيلة ، وأتاها من كلّ سبيل ، ونفذَ إليها من كل صَوبٍ وحَدَب ليُحبطَ المسعى، وينالَ الوَطر .

عجبًا ! كيف تفعلون هذا ، وتُقِرون ابنَ عباسٍ عليه ؟ أيبقى الرجلُ فى مكانِه ، لا يحرّك ساكنًا ، ولا يفعلُ شيئًا، وتقدمون له النقودَ اللازمة ؟ وليس ذلك فحسب ، وإنما تكلّفون أنفسكم تعبًا وإرهاقًا ، وجهداً أنتم فى حاجةٍ إلى القليلِ منه ، بَلْهَ الكثير . وتذهبون هنا وهناك لتجهّزوا له ابنتَه، ويبقى هو فى مكانِه ، وإذا بكلّ شيءٍ قد نُفّذ على خيرِ ما يبغي ، وأفضلِ ما يريد ؟؟ ما هذا ؟؟ إن لأنفسِكم

عليكم حقًا ؟ وإن عليكم أن تحسبوا حسابًا لما ستجدونه من جهدٍ ، وتلاقونه من عَنتٍ ومشقةٍ وإرهاق .. يكفى أن تذهبوا له بهذه النقودِ ، بل لا داعيَ لشيءٍ من هذا ، وما دام هو من الفقرِ بحيث لا يقدرُ على تجهيزِ ابنتِه ، فلا داعيَ لتجهيزِها ، ويجبُ أن تمضيَ فقيرةً إلى بيتِ الزوجية.. لا لا ، وفّروا هذا الجهدَ وذلك العناء!!

ولكن قلبًا واحداً يستمعُ هذه الوسوسةِ الدنيئة ، وظلّ مغلقًا فى وجهِ هذا اللعينِ ، فلم يجدْ بُدًّا من الابتعادِ ناقمًا ساخطًا ، وارتفع صوتُ الحقّ يقودُ هؤلاء إلى عملِ الخيرِ الصرف ، إلى حيثُ يدعو الإيمانُ الكامل ، والأخوّةُ القويّة . أجَل ، ارتفع هذا الصوتُ يقودُهم ويسجّل فى صفَحاتِ التّاريخِ هذه العبارة : لقد فعل ابنُ عباس ، وفعلَ القرّاء .. !!

